OPEN ACCESS
Journal of Arabic Research (AIOU)
jar.aiou.edu.pk
iri.aiou.edu.pk

التناص الديني في مقامات الزمخشري

Religious Textures in the " *Moaqamat -e- Zamakhsari* "

غلام أحمد

أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، جامعة الكلية الحكومية، فيصل آباد

عبدالمجيد

طالب الدكتوراه، قسم اللغة العربية، جامعة منهاج لاهور.

ABSTRACT

Intertextuality (التناص) in contemporary literature is a critical term that means the existence of verbal and moral similarity between one text and another or between two texts.

The term "intertextuality" in Arabic criticism studies has recently emerged and has been borrowed by Arab critics from the West through translation, since the literary text is not a closed linguistic system independent of the surrounding environment, but is a series of repetitions and reflections of multiple meanings, this is not to say that the concept of harmony did not exist in our critical heritage. If we look at the pre-Islamic era, we will find it manifested in the foreground, as well as the clear manifestation of the poets from the Qur'an throughout the ages, and we see it in the Abbasid era. The reflection of religious culture was apparent in works of writers and poets of that era in this creations, This is what happened in the Maqamat in the fourth, fifth and sixth centuries in which literature was enriched, where it flourished and came to fruitful in the fifth centuries and the sixth century was the era of Maqamat. The linguistic form was the same in most of the book of Maqamat, among these writers. Al-Zamakhshri, who wrote fifty (50) Maqamat in his book, kept it in the linguistic form of the place. But Al-Zamakhshri created the uniqueness in his Maqamat , and made it worthy for research and study. Although, Al-Zamakhshri did not hesitat in the style of Al-Hamdani and Al-Hariri, but we do not find in his Maqamat fun or entertainment, but he recommends in his Maqamat call for pleasing God Almighty.

Imam Abu-Qasim Mahmud ibn 'Umar al-Zamakhshari,(467-538), was a scholar of interpretation, modernity, and linguistics, but he is not known for many intellectuals that he was a writer of the Maqamat.We have been fascinated by the study of Maqamat, which is characterized by special features in Arabic literature.

In this study, we tried to highlight the religious affiliation of Abu-Qasim Mahmud ibn Umar al-Zamakhshri. Al-Zamakhshri of course, benefited from the religious literature, as did the Muslim writers of all ages. He quoted the words from the Quran and Sunnah and imported the meanings of the Islamic literatures.This research contains different aspects of verbal, moral and intellectual intertextuality. I also searched for the origins of Islamic art in Maqamat al-Zamakhshari.

Keywords: Arabic criticism, Arab critics, heritage, Islamic era, Abbasid era, Maqamat, sixth century, Al-Zamakhshri

الحمد لله الذي علّم القرآن، خلق الإنسان، علّمه البيان، أحمدك يا ربي حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله، وصحبه، والتابعين ومن اقتفى أثرهم، أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله تبارك وتعالى، وخير الهدي هدى محمد- صلى الله عليه وصلم -والذي ضمن الله لهما البقاء والحفظ في عقيدة أفراده، - صلى الله عليه وصلم-وشرائهم، وحياتهم، وآدابهم. ولذا فقد حث الإسلام على العلم من خلال الكتاب الكريم، والسنة النبوية الشريفة.

التَّنَاصُ (Intertextuality) في الأدب المعاصر هو مصطلح نقدي يقصد به وجود التشابه اللفظي والمعنوي بين نص و آخر أو بين عدة نصوص-

ظهر مصطلح التناص في الدراسات النقدية العربية حديثاً وقد استقاه النقاد العرب من الغرب عن طريق الترجمة، باعتبار أن النص الأدبي ليس نظاماً لغوياً مقفلاً ومستقلاً عن البيئة المحيطة وإنما هو سلسلة الارتدادات والانعكاسات لمعان دلالات متعددة،

حينما نطالع المعاجم العربية نجد معاني متعددة للنص وهي في مجملها تفيد الرفع والحركة والإظهار حيث جاء في اللسان (النص: رفعك الشيء، نص الحديث ينصه نصاً: رفعه، نص الحديث ينصه نصاً: رفعه نص المتاع: جعله بعضه علي بعض)[1].

والتناص من نص نصاً، الشيء أي رفعه و أظهره ، ونقول نص الحديث ؛ أي رفعه إلى صاحبه، وقد وردت بمعنى الازدحام ، إذ أوردها صاب تاج العروس فقال : تناص القوم ازدحموا[2].

إن التناص في النقد العربي الحديث هو ترجمة لمصطلح الفرنسي (intertext) حيث تغني كلمة (inter) في الفرنسة التبادل بينما كلمة :(text) النص و أصلها مشتق من الفعل اللاتيني (textere) و هو متعد و يعني "نسج "و بذلك يصبح معني (intertext) التبادل الفني وقد ترجم إلي العربية : بالتناص الديني يعني : تعالق النصوص بعضها ببعض و صيغته التناصيص مصدر الفعل علي زنة "تفاعيل" تأتي علي اثنين أو أكثر و هو تداخل النصوص ببعضها عند الكاتب طلباً لتقوية الأثر.كما يرد مصطلح (intertextual) وقد ترجم إلي التناصي أو التناص و هو ما يفيد العلمية الوصفية في التناص و مصطلح (intertextualite) و قد ترجم النقاد العرب « التناصية أو النصوصية » و هذه الترجمة مصطلح (structuralisme) بالبنائية أو البنبوية.

يميل معظم النقاد إلى تغريب مفهوم التَّنَاص ، وربطه بالحركة النقدية الغربية، وبخاصة كريستيفا التي حددت بمفهوم التَّنَاص بأنه كل نص هو امتصاص ، و تحويل، و إثبات ، ونفى لنصوص أخرى-أو كل

ما يجعل النص في علاقة ظا هرة أو خفية مع نصوص أخرى أو إدراک القارئ للعلاقات الموجودة بين عمل و أعمال أخرى سبقته-

و يورد سعيد علوش في كتابه :(معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة بعض التعريفات لمصطلح التناص بدء من جوليا كرستيفاو إنتهاءًابرولان بارت .)

١- يعتبر التناص عند" كرستيفا " أحد مميزات النص الأساسية التي تحيل علي نصوص أخري سابقة عنها معاصرة لها .

٢- يري "سوليرس" التناص فط كل نص يتوضع في ملتقي نصوص كثيرة بحيث يعتبر قراءة جديدة تشديداً و تكثيفاً .

إن مقولة بارت، حول انعدام نص مبدع إبداعاً تبدو مقبولة وصحيحة؛ إذ لا يوجد نصٌّ بريء من التأثر بالنصوص القديمة أو المعاصرة له. فالنص يتشكل عبر تراكم من التجارب الحياتية الذاتية والقراءات في المرجعيات المختلفة، ونحن لا ننسى أنَّ شعراءنا القدماء مثلاً كانوا يحفظون الشعر ثم ينسونه، وتشكل لديهم فيما بعد ملكة شعرية لا ينكر قارئ من خلالها أنَّ شاعراً تأثر بلآخرة معنيً أو مبنىً.ولما كان القرآن الكريم هو النص النثري المكتمل والمعجز في آن معاً، ثم تلاه حديث لنبيﷺ وما أثر عن الصحابة فإنّه بقي وما تلاه ملهما للشعراء والأدباء، يستخدمون لغته ، وتشبيهاته و أساليبه، وينهلون من قصصه ومعانيه الحية الباقية منذ الرسالة الإسلامية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

إنَّ التأثر بالقرآن والنص الديني عموماً أمر لا يختلف فيه اثنان؛ لأنَّ التجربة الشعرية بعد الإسلام اثبت امتصاص الشعراء لمعاني القرآن وقصصه ولغته، و هي مسألة حظيت باهتمام القدماء والمحدثين.

غير أنَّ الأدباء اختلفوا في مسألة استلهام النص الديني؛ فمنهم من لجأ إلى اقتباس المباشر، و منهم من راوغ وامتص معاني القرآن الكريم ووظَّفه في نصوصه، هذا من جهة ومن أخرى اختلفوا في تشكيل الدلالات من خلال استنجاء النص الديني: فمنهم من أخذ المعنى كما هو عليه ، ومنهم من قلب سلالة المعنى و طرح المفهوم الديني مستخدماً مفهوماً آخر مختلفاً.والأديب بشكل عام والروائي على وجه الخصوص يتوجه إلى النص الديني مستثراً له في الكشف والتعرية؛ لمعرفته بأثر النص الديني إلىٰ المتلقي، لأنه يعلم أنَّ المتلقي العربي المسلم يستأس بهذا النص، وإنَّ المبدع يستخدم هذا النص وسيلة للوصول الى الملتقي.

برزت المقامة فنا جديدا منذ العصر العباسي، و هو فن متطور من الكتابة النثرية ذاتها، كما فن الموشحات المتطور والمخترع المتفرع من أصله الثابت، ألا وهو الكتابة الشعرية-المقامات فى اللغة جمع المقامة، والمقامة هي المجلس، والمقصود بالمقامة فى الأدب قصة تدور حوادثها فى مجلس واحد[٣]- المقامة قصة وجيزة أو حكاية قصيرة مبنية على الكدية (الاستعطاء) و عناصرها ثلاثة:

- راوية ينقلها عن مجلس تحدث فيها
- مكد (بطل) تدور القصة حوله وتنتهي بانتصاره فى كل مرة
- ملحة (نكتة)،(عقدة) تحاك حولها المقامة؛ وقد تكون هذه الملحة بعيدة عن الأخلاق الكريمة و أحيانا تكون غثة أو سمعة و تبنى المقامة على الإغراق فى الصناعة اللفظية خاصة والصناعة المعنوية عامة

إن أول من قام بصياغة هذا النوع الأدبى هو بديع الزمان الهمذانى (٣٥٧ هـ - ٣٩٨ هـ) الذى يعد مبدع المقامات غير أن هناك تباين الآراء بين النقاد والباحثين فى إعتبار الهمذاني مبدعا لهذا الفن الأصيل.يتناول هذا البحث ما تعالق مع مقامات جارالله الزمخشري من مستندات دينية مقتبسة أو مضمَّنة من القرآن الكريم، وأحاديث الرسول ﷺ ، وبعضاً من البينات الفنية الَّتي تلتقي مع بناء الحديث الشريف، كما أنَّه يعالج ما يتناص مع سيرة الرسول ﷺ ، الَّتي حاول جارالله الزمخشري من استدعائها أن يعبِّر عن حاجة آنية تلحُّ عليه في أثناء السَّرد وسياقه، ولما كان جارالله الزمخشري واسع الثقافة، استطاعت نصوصه المقامات أن تهتدي إلى عمق المدلولات الدينية بصرف النَّظر عن مصدرها.وحاولت في هذا البحث إبراز التَّنَاص الديني المترشح من مقامات محمود بن عمر، جارالله الزمخشري، فإن الزمخشري طبعا استفاد فنه و فكره من الأدب الديني مثل ما فعله الأدباء المسلمون في مختلف العصور- كان يقتبس الألفاظ من القرآن والسنة وكان يستورد المعاني من الآداب الإسلامية الجليلة-

فنراه يدور في أفلاك ليس لها قرار، لعلَّه ينتهي إلى مبتغاه متيمِّنا بالدين ومصادره، ويعني بالتناص الديني: تداخل نصوص دينية مع نص مقامات الزمخشري، عن طريق الاقتباس أو التضمين من القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو الخطب أو الأخبار الدينية [٤] . مستهدفة فكرة معينة تدور في خلد مقامات الزمخشري أولاً، وفي عمق النص ثانياً، إذ تستير عليه قضية ما تدفعه اندفاعاً تَلقائياً عفوياً إلى مدلولات دينية لها ماضيها كما لها حاضرها.

لقد اشتهر الإمام أبوالقاسم محمود بن عمر الزمخشري، جار الله (٤٦٧-٥٣٨هـ) عالما في التفسير، والحديث، واللغة ، ولكنه لم يعرف عند كثير من المثقفين بأنه كاتب للمقامات- ولقد احتلت مقامات الزمخشري حيزا لا بأس به ضمن بحوثه الزاخرة في مجال العلوم الدينية والفقهية واللغوية والبلاغية ، لكنها لم تنل تلك الشهرة التي نالتها تلك البحوث، و ذلك أن شهرته مفسرا و لغويا و معتزليا غلبت شهرته في فن المقامات- و قد أشار الدارسون إلى مقامات الزمخشري إشارات مقتبضة في معرض دراستهم للمقامة- لقد كان الشكل اللغوى واحدا عند معظم كتّاب المقامات ، وهو شكل قائم على الإكثار من المحسنات البديعية والزخرف اللفظي و أجناس الكناية والتورية وغيرها ، و قد خرج

عدد من كتّاب المقامة على المضمون العام الذي ارتبط بالمقامة وهو الكدّية، واستغلّ الشكل اللغوى الذي ارتبط بالمقامة لينفذ إلى مضامين جديدة دون أن يتخلّى عن الشكل المألوف للمقامة- ومن هؤلاءالكتّاب : الزمخشري الذي تصدّى للكتابة خمسين مقامة حافظ فيها على الشكل اللغوي للمقامة غير أنه خرج بمقاماته عن المضمون العام الذي تحقق فيما سبقه من مقامات- ولعل هذا ما أوجد تفردا للزمخشري و مقاماته، وجعلها جديرة بالبحث والدراسة ، لأن الزمخشري لم يسر على نهج الهمذانى والحريري، إذ لا نجد في مقاماته هزلا ولا تسلية، إنما هي جدّ و توصية و كلها تدعو إلى إرضاء الله عزوجل، تأمر بالمعروف و تنهى عن المنكر-

فلن تجد في مقامات الزمخشري النقطة الخامسة فإنها لا ترد إلا جزئيا: تجد السجع والمحسنات ولا تجدُ الشعر الا لماماً. أما الأنواع فلن تجد منها إلا الوعظ، وهو النوع الذي يوافق الحياة الجديدة التي أقبل عليها صاحبُنا. ومع ذلك فلقد احتفظ باسم المقامة إذ من المعروف أن كلمة مقامة كانت تدل، قبل أن ترتبط باسم الهمذاني، على الخُطَب الوعظية التي تُلقى في المساجد والمجاميع.

استلهام المفاهيم من النصوص الدينية

ولقد كفل الإسلام للإنسان حقوقه كلها: حق الحياة في كرامة ، وحق الشعور بهذه الكرامة، والتعبير عن هذا الشعور وفق ما رعى من مصالح الفرد التي تنسجم في مصالح الجماعة ولا تؤدي إلى تعطيل شيء، ليتلاحم الكيان المسلم بالحرص على مخالقة الناس بالخلق الحسن، ومصداق ذلك قول المصطفى صلى الله عليه وسلم :(ألا إن من أحبكم إلىّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقا، الذين يألفون ويؤلفون).

وتصور المقامات شيئاً كبيرا من هذا عند الزمخشري فهو يكتب خمسين موعظة يسمى كل واحدة بالمقامة، ويشرحها، ولئن كان الزمخشري لم يحافظ من الشكل الفني للمقامة إلا على الأسلوب المسجوع الذي يشاركه في المحافظة عليه كتاب الرسائل، فلقد أراد أن يرتفع بالمقامة عن الكدية والاستجداء، ووصف مباذل الحياة التي كانت ظاهرة كل الظهور في مقامات البديع الهمذاني، والحريري إلا على الراوية الذي سماه فيها أبا القاسم و يعني به نفسه، والبطل هو الهاتف الذي سمعه في بعض إغفاءات الفجر يقول له:

(يا أباالقاسم: أجل مكتوب، وأمل مكذوب، فهبّ من إغفاءاته تلك مشخَوصاً به، ممّا هالهَ من ذلك وروّعه ونفّر طائرهُ و فزّعه، وضمّ إلى هذه الكلمات ما ارتفعت به مقامه، وآنسها بِأَخواتٍ قلائل ثمّ قطع لمراجعةِ الغفلةِ عن الجد بِالهَزلِ، فلمّا أُصيبَ في مستهّلّ شهرِ الله الأصمّ الواقع في سنة ثنتيّ عشرة بعد الخمسمائة بالمرضة الناهكة التي سماها المنذرة، كانت سبب انبته، و تغير حاله وهيئته)[٥].

فالمقامات الزمخشرية على هذا ألفت في مرحلتين:

أولاهما: قبل المرض الشديد الذي ألمّ به في شهر رجب سنة ٥١٢هـ وتضم اثنتي عشرة مقامة، وفي تلك المقامات ما يشعر أن الرجل يخاطب نفسا لها إلى ملاذ الدنيا ميل، وعلى الشهوات إقبال تحتاج إلى وعظ رادع، وإرشاد اكابح.[٦]

وثانيتهما: بعد المرضة الشديدة المذكورة، والتي مكنت في نفسه مفارقة الدنيا، ودنو الأجل فنراه يخاطب نفسا أثقلها المرض، فاستكانت وبدأت تترقب حين الوداع في رضى بالقضاء، وشكر عليه، وندم على ما فرطت في جنب الله[٧].

والذي يعنينا هنا هو ما تضممته هذه المقامات من حرص على تأكيد الأخلاق الإسلامية منتظمة في السياق التالي:

١) الزهدفي الحياة.
٢) الصبر على المتاعب.
٣) الحث على الشكر، والكرم.
٤) تأكيد الوفاء بعهد الله.
٥) بيان مهمة المسلم في الحياة بدءاً من حسن الصحبة وانتهاءً بالوقوف أمام العقبات بشجاعة.

فقد حث الزمخشري على الزهد في الدنيا، فقال:(يا أباالقاسم مالك لا ترفض هذه الفانية رفضاً، ولا تنفض يديك عن طلبها نفضاً، ألم تر كيف أبغضها الله أبغضهاأنبياؤه، ومقتها أولياؤه ولولا استيجابها أن تكون مرفوضة، لو زنت عند الله جناح بعوضة....)[٨]؛ وأخذ يبين أن كل ما فيها من سرور، ومن أشياء جميلة، زائل،فليكن هذاالزوال هو الزاجر لكل عاقل لكي لا يلبي داعي الشهوة لديه ، وأن يعتصم بحبل الله و يتمسك بعروته التي لا تنفصم، قال تعالى:﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ...﴾[٩]؛وقال تعالى:﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾[١٠]. ويكفي تزهيد الرسول. عليه السلام. فيها بقوله الذي استشهد به الزمخشري : :(لو كانت الدنيا تعدل عندالله جناح بعوضة، ما سقى كافراً منها شربة ماء)[١١].

والزمخشري يعرف مكانة الصبر، لذاجعله ضمن صفات الرجل الحر، فقال:(والحرّ عزوف، عروف، لموارد السّوء عيوف)[١٢].حث الصابرين على أن يجعلوا قدوتهم في الصبر، أنبياء الله، وما تحملوه من عذاب ومشاق في سبيل نشر الوحدانية، فقال:(واجعل مرمى بصرك الغاية التي انتهى إليها أولو العزم الصابرون، وممشى قدمك الطريقة التي انتهجها الفائزون)[١٣].وفي مقامة أخرى أخذ يعدد بعض نعم الله على الإنسان، من أفلاك، وكواكب، وشمس وقمر، ومطر وأرض وجبال، وبحرين عذب ومالح، وحب ونوى، وخلق الإنسان نفسه بعد أن كان نطفة وجعل له قلباً ولساناً وبصراً (ما هذه إلّا دلائل على أنّ وراءها حكيماً قديراً، عليماً خبيراً، تتصرّف هذه

الأشياء على قضائه ومشيئته، ويتمشّى أمرها على حسب إمضائه وتمشيته ... وهذه كلّها محدثات عن عدم، فليملأ اليقين صدرك بلا مخالجة ريب، ولا تزلّ عن الإيمان بالغيب وعالم الغيب،... وارحم نفسك بابتغاء رحمته، وانعم عليها بالشكر على نعمته، ولينكشف عن بصرك غطاؤه. فأنت وجميع ما عندك عطاؤه)[١٤].لقد بين الزمخشري أن العبد لا يكون شاكراً لمولاه إلا إذا استعمل نعمته في محبته، أي فيما أحبه لعبده لا لنفسه، وأما إذا استعمل نعمته فيما كرهه فقد كفر نعمته، كما إذا أهملها وعطلها، وإن كان هذا دون الأول إلا أنه كفران للنعمة بالتضييع، وكل ما خلق في الدنيا إنما خلقه الله للعبد ليتوصل به إلى سعادته.

ثم أخذ الزمخشري يحثنا على الكرم، ويبين لنا الكيفية وذلك ، بأن لا نترك الصدقة تذهب من بالنا ، وأن يكون للعطية حظ من مالنا فيقول : ولأن الله جعلك سيدا على مالك، فسق لهذاالمال الصدقة أي الصداق ، وصداق المال : الصدقة على الفقراء فالله أعطاك هذا المال واستقرضك إياه من أجلهم لتنال فضلهم، ولا تنس المتعففين، وهؤلاء جعلهم ابن قيم الجوزية أصحاب المرتبة العاشرة من الجود فقال:

(العاشرة: الجود يتركه ما في أيدي الناس عليهم، فلا يتلفت إليه ، ولا يستشرف له بقلبه، ولا يتعرض له بحاله، ولا لسانه ،...فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد : وان لم أعطك ما تجود به على الناس ، فجد عليهم بزهدك في أموالهم ، وما في أيديهم، تفضل عليهم ، وتزاحمهم في الجود، وتنفرد عنهم بالراحة)[١٥].و في المقامة الثالثة والأربعين ،(مقامة الخمول)حث الزمخشري الإنسان على مصاحبة أخ له صفات بينها بقوله :(ولا تنشط إلا إلى زائر إن ضللتَ عن المحجة أرشد، وإن أضللت الحجة أنشد، وإن خفي عليك الصواب جلى، وإن أصابت هم في دينك سلى لا يزورك إلا ليوصيك بالحق وينصحك، و يراب ثايك ويصلحك، ويعالجك مرضك و شكاتك، بما يصف من أمر مضحكاتك ، ذلك لا يتنفس في جناحك إلا عبق نسيم الفردوس بثيابك ، ولا يخطر في عرصة دارك إلا أصبحت مباركة، وبسطت أجنحتها فيها الملائكة، فلا تبغ به بدلا وإن افاءَ عليك بيض النعم و سياق إليك حمر النعم)[١٦].فقد حث الزمخشري على فضلية الوفاء حين ذكره ضمن صفات الذين يجب أن يكونوا أسوة لنا نسير على خطاهم ، فقال :(يا أباالقاسم لِله عباد رهنوا بحق الله ذممهم ...ثقات لا تعرف النكث عهودهم وأماناتهم))[١٧]، فمن العباد الذين نجعلهم أسوة لنا في الوفاء؛ الأنبياء، صلوت الله عليهم أجمعين . فقال:﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾[١٨]، وقال:﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾[١٩]، وأولهم الرسول صلى الله عليه وسلم. الذي ضرب المثل الواقع في الوفاء، حيثما حفظ عهد زوجته خديجة .رضي الله عنها . حفظه في حياتها، وبعد مماتها ، ولم يشغله عن ذكرها شاغل، فكان يكثر من الحديث عنها وإثناء عليها.قدحضّ الزمخشري على الشجاعة، ونفر من الذل داعياً إلى اجتناب الظلمة في مواضع كثيرة منها قوله في مقامة اجتناب الظلمة(ولا تراجح الرّكون إلَى أهل الحيف، وإن عرضوك على غرار

السيف، وأجر لسانك أن تنطق بثناء لهم وامتداح ... وتربت يداً من بسطهما إلى إعطياتهم وإياديهم. من وقف وقفةلاحدهم على ربع فليغسل قدمه سبعين فضلاً عن سبع ، ويحك لا يرينَّ جسمك في إيوانه، ولايجرينَّ اسمك في ديوانه، ولا يخطونَّ قدمك في إيوانه، وطيب نفسك عمَّا ليس بطيب من أرزاقه، ولا تلوثها بالطمع في إرفاده وإرزاقه وإيّاك وهذه المراسم المسماة فإنّها والمواسم المحماة...)[٢٠].تدور معظم مقامات الزمخشري حول الحث على جهاد النفس وأراد أن يبدأ الإنسان بمجاهدة دواخل نفسه، ليتمكن بعد ذلك من مقاتلة عدوه فها هو ذا في مقامة المراشد يحث نفسه على فعل الخير وترك الشر لأن خصال الخير كتفاح لبنان، وخصال الشر كحسك السعدان، فالأولى كيفما قلبتها دعتك إلى نفسها، والثانية أنى وجهتها نهتك عن مسها، وقال:(إن أردت الرفول في مطارف العز الأقعس)[٢١] مرغباً في الوصول إلى ذلك بعمل الخير، ومحذراً من الشر؛ لأن صاحبه ملتف في أطمار الأذل الأقعس.كأنه تمثل قول الرسول–صلى الله عليه وسلم– حين سأله رجل: أي الناس أفضل؟ قال:(هو من يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله)، قال: ثم من؟ قال:(مؤمن في شعب من الشعاب يعبد الله ويدع الناس من شره)[٢٢].

فالذي يعبد الله في شعب من الشعاب ، ويبتعد عن الشر هو مجاهد لنفسه، وقد ذكره الرسول الكريم قسيماً للمجاهد بنفسه وماله في سبيل الله. كما أخذ الزمخشري يحث نفسه على جهادها، وذلك بالنظر في العواقب ، ومرقبة الله والحذر من الوقوع فيما يغضبه، ودفع النفس إلى الهدى والشاد بالعمل الصالح والكلم الصاعد أي الطيب، قال الله تعالى :﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[٢٣].ثم أخذ يحثنا قائلاً : واجعل المتقين هم خلصاءك، وامش مع الهادين، وحاسب نفسك وعاتبها قبل أن تحاسب و تعاب...واترك ظرق الضالين؛ لأن الحامل على الضلال كالحية لا تنفع معها الرقبة هي التقي، أما قوله:(ويحك اخلط نفسك بِغِمَارِهم، واحمِلها على شق غبارهم فعسيت بفضل الله تنجووتفوز ببعض ما ترجو)[٢٤]، فهو ترغيب ليدفع بنفسه لمخالطة الناس، ويحملهاعلى شق غبارهم ؛ لعله ينحو ويفوز ببعض ما يرجو.

ملامح الفن الإسلامي

إن الوعظ من أخص خصائص المقامات و هو من الأفكار التي اهتمّ بها كتاب المقامة ولا سيما الزمخشري الذي خصّ مقاماته الخمسين كلها بالوعظ.وهذا الفن يشمل:

الرمزية

والقِص

والواقعية

الرمزية عند العلماء علامة تدلّ على شيء له وجود قائم بذاته. وقد استخدم الرمز في كثير من المجالات رغبة في الإيجاز.فهو وسيلة للتعبير عن التجارب الأدبية المختلفة بوساطة الرمز.

أما الرمز عند الزمخشري فقد ظهر في مقامته الثالثة حين بين أن المشقة في الدنيا يعقبها نعيم دائم في الجنة، ولكن النفس تواقة إلى تنفيذ ما تشتهيه فإن فعل كان بذلك قد ترك الحق إلى الباطل، ولما أراد أن يعظنا بألا نسير في هذا الطريق لجأ إلى قوله:(أين علتك في أن تشرد شراد الظليم عن رضوان الله ودار النعيم، هيهات لا عذر ولا علة...أيها العاقل لا يعجبنك هذا الماء والرونق فإنه صفو مخبو تحته الرنق)[٢٥].

يلجأ الزمخشري للرمز ذي الدلالة التاريخية، ليرمز بها ويوظفها في وعظه ليس في هذه المقامة فحسب، حين استدعى شخصية المرواني بل نراه في مقامة المسماة القناعة، يعود إليه مرة أخرى، لكنه يرمز هاهنا عن طريق القصة، قصة قارون، فالإنسان كل ما نال مالاً أو جاهاً ، أو سلطة طمع في النيل أكثر، وطلب أزود، ولا يقنع بما رزقه الله إياه ويشكره على ما أولاه من النعم، يقول الزمخشري:(ثم إنه مع أن يساره لا يفضله يسار، ولا يضبط حسبان ما يملك يمين ولا يسارُ ... مفاتحه لا تنوء بالعصبة أولى القوَّة ؛ على أنَّه أوفر من قارون سعة وثروة)[٢٦].

وها هو ذا الزمخشري قد اعتمد القصة في مقاماته ؛ متبعا أحداثاً ماضية واقعة، سواء من القرآن الكريم أم السنة المطهرة، أم مما ألفه العرب و شاع بينهم من القصص بعيداً عن القرآن ، والسنة، يعرض منها ما يرى عرضه ، سواء بالإشارة أم الرمز مكتفياً بما اشتهر عنها و عرف، أم بالتفصيل الذي يصل به إلى موطن العبرة والعظة مدركاً مدى تأثيرها في النفوس ؛ وعليه فليس بغريب إذا وجدنا الإشارة إليها مقترنة الخطي بمقاماته المتعددة؛ لأن مقامات الزمخشري وعظية أولاً وقبل كل شيء، وفي تضاعيف قصصها و أخبارها يزداد غرض الوعظ وضوحاً إن كان وعظاً، أو الوصول إلى أهداف أخرى إن كانت هي غرضاً من وراء هذه المقامة. ينصح ذلك من خلال التعقيبات على ماورد سواء كان يحمل في طياره ملامح الترغيب أم الترهيب.كما ذكر قصة معاوية بن عمرو بن هاشم بن حرملة فيقول في المقامة نفسها:(ولا تجعل الدنيا لك مؤنسة. فإنها لا . أُمّ لك . مومسة[٢٧]. تجر على طالبها من جهد البلاء ما جرّته أَسماءَ على راكب الشَّيماءِ[٢٨]. وعلى هاشم و دريد[٢٩] ابني حرملة. من وقع السنان ونفوذ المعبلة[٣٠])[٣١].واستمر الزمخشري يذكر قصة علباء الجشمي[٣٢]، وقصة ذوالكف الأشل[٣٣]، وحمران بن ثعلبة[٣٤]، ومالك بن الصمة[٣٥]، وربيعة من مكدم[٣٦]، وهكذا ظل يذكر حوالي ثماني عشر قصة.

إن معظم المقامات. إن لم يكن كلها. صيغت بأسلوب السرد، فهذا البديع يبدأ مقاماته . العلامة الزمخشري فهو يبدأ مقاماته كلها بقوله:(ياأباالقاسم): مخاطباً نفسه، واعظاً غيره، ومقاماته كلها نثرية، يتضمن ذلك بعض الشعر، إلا أنه قليل جداً حتى إنه من قلته لم يذكر من المقامات الخمسين إلا في إحدى عشرة مقامة فقط هي المقامة: ٦، ١٠، ١١، ١٣، ١٥، ١٩، ٢٢،(الزهد ، التسليم، الصمت، المنذرة، الطيب، العزلة، الولاية)،كما أن مقامته الأخيرة(أيام العرب)، صيغت بأسلوب قصصي، بلغ السبع عشرة قصة، تصلح أن تكون كل واحدة منها مشهداً تمثيلياً وآخر مسرحياً.

العلامة الزمخشري يسير كما سار كتاب المقامات على نفس نهج البديع في تركيب الجملة المقامية ؛ فمعظم الكلمات التي يختتم به الجمل متوازنة، ومسجوية، بالإضافة إلى التزيمة الصيغ اللفظية التي تجعله يعمد إلى لزوم مالا يلزم، كما في مقامته التي يقول فيها:(يا ابا القاسم تبتل إلى الله وخل ذِكر الخضر المبتل، ورتل القرآن ، وعد عن صفة الشغر المرتل. أَدِر عينك في وُجُوهِ الصلاح لتعلق أصلحها. لافي وُجُوهِ الملاح، لتعشق أصبحها)[٣٧].

علوم اللغة العربية في مقامات الزمخشري

العلامة الزمخشري في مقامته (٣٩) يوصي بالعودة إلى منابع الإسلام الصافية والتي تتركز في كتاب الله الذي راعي الطبيعة البشرية، وما جبلت عليه من ميول، والذي يحرص أن يصل إلى النفس من منافذ التأثير فيها ، ومن هنا يستفيد صاحب المقامة من كل ذلك فتيجة إلى الوجدان باعتباره وعاء الشعور الإنساني، ومجمع غرائزه ؛ ليثير فيه حب القرآن مع عرض نماذج لما سيترتب على الاستحابة وعدم الاستحابة؛ ليصل بالسامع إلى حالة التوازن المطلوب فيجعل منها مناء في إيمانهم ، وهو في هذه المقامة يعمد إلى جملة من أساليب التأثير حتى يصل هداها إلى أعماق النفوس، منها :

صور التشبيه الكثيرة فهو حبل الله ... وهو سيف سقاط ... وهو حبل عاصم .. . وهو بحر لجي ...

فيقول :(وهو حبل الله المتين، وصراطه المستبين...)[٣٨].

صور التشبيه الكثيرة فهو حبل الله ... وهو سيف سقاط ... وهو حبل عاصم .. وهو بحر لجي ..

فيقول :(وهو حبل الله المتين، وصراطه المستبين...)[٣٩].وهو في هذا يستقي من القرآن الكريم ، فقد قال في ذلك :﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[٤٠]، أو قوله تعالى :﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ

وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾[٤١].وفي قول الزمخشري:(جبل يعتصمَ من اعتصم بمعاقله)[٤٢]، فهذا التشبيه للقرآن قد وجد في كتاب الله، لكنه جاء على لسان ولد سيدنا نوح عليه السلام حين أراد أن ينجو بمن معه من الطوفان فقال: ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾[٤٣].

أما في مقامته التي تحمل اسم (النحو)، ففيها حث للنفس مستعملا ألفاظاً نحوية مثلاً:

يتهمها بالعجز أن تكون كهمزة الاستفهام الذي ذكر من صفاتها (الضعف) ومع ذلك تتصدر الكلام، و ضعف همزة الاستفهام لأنه لا عمل لها لكونها دخلت على الاسم والفعل و أخذت صدر الكلام لأنها تدخل على الجمل لتعطي معناها فيها و تنقلها من الأخبار إلى الاستفهام . لذا وجب وقوع حروف الاستفهام قبل الجملة المستفهم عنها فيقول: (ليتك أشبهتها متقدماً في الخير مع المتقدمين. ولم تشبه تأخرك حرف التأنيث والتنوين)[٤٤] .إذن هو حث على أن تكون (النفس) في المقدمة كهمزة الاستفهام، ويظهر أثر القرآن واضحاً في ذلك، فقد قال تعالى عزوجل :﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[٤٥] ، وقال أيضاً: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ . أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾[٤٦].

الخلاصة

أكمل الزمخشري وعظه مستعملا المصطلحات العروضية فحث على تقوى الله ومراقبته، والخوف من عقابه، وترك المعاقبة[٤٧] المعروفة في علم العروض، فقال : (عليك بتقوى الله ومراقبته ، ولترعد فرائصك خوف معاقبته، ودع ما يجري من المعاقبة، المراقبة بين الحرفين، وعد عن الصدر واعجز والطرفين، ما ضرك إذا تمّ ووفرديناك وسلم[٤٨] وصحّ[٤٩] يقينك،واتّصفا بالوُفور[٥٠]والاعتدال[٥١]،وخلصا عن الانتقاص[٥٢] والاعتدال[٥٣])[٥٤].

فيريد من نفسه قبل القاريء لمقاماته أن يتمم دينه، ويصحح يقينه و يتصف بالاعتدال، ويتعد عن النقص والإعلال، وإن كنت حريصاً على أن تكون من أهل الفضل والحزم فعليك ألا تهتم ، ولا تفكر في مصطلحات العروض التي أورد معظمها إن لم تكن كلها من مثل: الخزم [٥٥]والخزم[٥٦]..... الخ.القافية لم يتناولها أحد من المقاميين عدا الزمخشري الذي اتخذ مقامته الثامنة والأربعين (مقامة القوافي) والتي تحمل اسم (قوافي) مرتعاً لأزهار معرفة بمصطلحات هذا العلم إلا أنه كدأ به في بقية مقاماته، جعل منها منطقاً لوعظ نفسه والآخرين ، فقال :

(استغن بكلمات الله الشافية عن التكلم في حدود القافية... واذحل عن المتكاوسِ[٥٧] منها والمتدارك [٥٨]، بِتَكاوُس ذنوبك....)[٥٩].وبعد ذكر للكثير من مفردات هذا العلم الذي سخره لوعظه كما قيل في المقامة السابقة، أكد أن هذا العلم لا ينفع صاحبه عندالله ، يقول في ذلك :(ولا أنّ من لا يعرف نفاذا [٦٠] ولا توجيهاً[٦١]، لم يكن عند الله وجيهاً)[٦٢].

الهوامش و المصادر

١- لسان العرب مادة "نص".

٢- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبدالرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضي الزَّبيدي، مجموعة من المحققين، دار الهداية،ج١٢،ص١٨٢.

٣- البستانى، أدباء العرب ، ج٢، ص ٣٨٩

٤- الزعبي (أحمد)، التناص نظريا و تطبيقا، ص ٣٢.

٥- مقامات الزمخشري، خطبة الكتاب،ص ١٠_١١.

٦- فن المقامة في القرن السادس، د.حسن عباس، ص ١٧٣.

٧- فن المقامة في القرن السادس، د.حسن عباس، ص١٧٤.

٨- ذمقامة الزهد ،ص٢٣.

٩ - سورة النساء٤/ ٩٦.

١٠ - سورةالنحل١٦/ ٩٦.

١١- رواه الترمذي (٢٣٢٠)، عن سهل بن سعد لساعدي رضي الله عنه .كتاب الزهد ، باب (١٣)،٤/١٣٧٧،١٣٧٦.

١٢- مقامة الطيب،ص ٦٩.

١٣- مقامةالعزم،ص٢١٣،٢١٢.

١٤- مقامة التوحيد، ص ١٣٠.

١٥- تهذيب مدارج السالكين، هذبه عبد المنعم العربي،٢/٢٤٧،٦٤٦.

١٦- مقامة الخمول،ص ٢١٠،٢٠٩.

١٧- المقامة (٣٥) مقامة الأسوة،ص ١٧٢،١٧١.

١٨- سورة النجم٥٣/ ٣٧.

١٩- سورة مريم ١٩/ ٥٤.

٢٠- مقامةاجتناب الظلمة، ص١٥١،١٥٠،١٤٩.

٢١- مقامة المراشد، ص ١٨،١٧.

٢٢- رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، كتاب الجهاد، ١٨/٤. ورواه أبو داود (٢٤٨٥)، كتاب الجهاد، باب في ثواب الجهاد، ٥/٣، ورواه الترمذي، كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء أي الناس أفضل، ١٨٧/٤.

٢٣ - سورة الفاطر٣٥/ ١٠.

٢٤ - مقامة المراشد، ص٢٠.

٢٥- مقامة الرضوان، ص ٢٤.

٢٦- مقامة القناعة،ص ٧٤.

٢٧- المومسة: المرأة الفاجرة من الومس ، وهو الكلام الخفي، واسم بغى كانت في بني مرة بن سعد بن ذبيان. (هامش مقامات الزمخشري ص ٢٥٦).

٢٨- والشيماء: فرس معاوية بن عمرو بن الشريد . (هامش مقامات الزمخشري ص ٢٥٦).

٢٩ - هاشم بن دريد: رجلان من ساداتهم. (هامش مقامات الزمخشري ص ٢٥٦).

٣٠- المعبلة: من النصال. لسان العرب (مادة عبل)

٣١ - مقامة أيام العرب ، ص ٢٥٦.

٣٢ - هامش مقامات الزمخشري ص ٢٥٧.

٣٣- هامش مقامات الزمخشري ص٢٦٠.

٣٤ - هامش مقامات الزمخشري ص٢٦٠.

٣٥ - هامش مقامات الزمخشري ص٢٦٢.

٣٦- هامش مقامات الزمخشري ص٢٥٣.

٣٧- مقامة الطاعة، ص ٥٨.

٣٨- مقامة الفرقان ، شرح مقات الزمخشري ،ص ١٨٧.

٣٩- مقامة الفرقان ، شرح مقات الزمخشري ،ص ١٨٧.

٤٠- سورة آل عنران٢/ ١٠٣.

٤١ - سورة آل عنران٢/ ١١٢.

٤٢ - مقامة الفرقان ،ص١٨٧.

٤٣- سورة هود١١/ ٤٣.

٤٤مقامة النحو، ص ٢١٨، ٢١٩.

٤٥- سورة المؤمنون٢٣/ ٦١.

٤٦- سورة الواقعة٥٦/ ١٠.

٤٧- العاقبة بين ساكني السببين المتجاورين أن يثبت أحدهما أو كلاهما ولا يذهبا معاً (لسان العرب مادة : عقب).

٤٨- السالم : الجز الذي خلا من الزحاف ،(لسان العرب مادة : سلم).

٤٩- الصحيح : العروض أو الضرب الذي سلم من الانتقاص ، (لسان العرب مادة : عقب). (لسان العرب مادة : صحح).

٥٠- الوافر : البحر الذي كرر فيه مفاعلتن ست مرات ، سمي بوفور حركاتها . (لسان العرب مادة : وفر).

٥١- الاعتدال : أن يستوى المصراعان من خلف بين أجزائهما، (لسان العرب مادة : عقب). (لسان العرب مادة : عدل).

٥٢- الانتقاص: الحذف اللازم،(لسان العرب مادة : عقب). (لسان العرب مادة : نقص).

٥٣- العتدال: أن يخالف العروض والضروب الحشو بسلامة أو بزحاف،(لسان العرب مادة : عقب). (لسان العرب مادة : علل).

٥٤- مقامة العروض،ص ٢٢٦. ٢٢٧.

٥٥- الخزم: نقصان حرف من الوتد المجموع الواقع في الصدر، (لسان العرب مادة : عقب). (لسان العرب مادة : خرم).

٥٥- الخزم: نقيض الخرم و هو زيادة في الصدر خاصة حرف أو حرفان أو ثلاثة أو أربعة،شبه بخزم أنف البعير، هو أن تزاد الحلقة التي تسمى الخزامة، (لسان العرب مادة : خزم).

٥٧- المتماس: كل قافية توالي فيها متحركان بين ساكنين نحو متفاعلن (لسان العرب مادة : موس).

٥٨- المتدارك كل قافية توالي فيها متحركان بين ساكنين نحو متفاعلن ،(لسان العرب مادة : درك).

٥٩- مقامة القوافي، ص٢٣٨، ٢٣٩.

٦٠- النفاذ: حركة هاء الوصل التي للإضمار ، لأن نفاذ الخروج و مضماره بهذه الحركة ،(لسان العرب مادة : نفذ).

٦١- التوجيه: حركة الحرف الذي إلى جنب الروي المقيد ،(لسان العرب مادة : وجه).

٦٢- مقامة القوافي، ص ، ٢٤٠، ٢٤١.